J. Hajjar, **L'Europe et les destinées du Proche-Orient,** (1815 1848) Bloud et Gay 1970.

اذا قلنا ان اهم المراجع والدراسات والابحاث المتعلقة بالشرق العربي وبقضاياه ومشكلاته السياسية والاجتماعية والتاريخية قد نشرت في اللغات الاجنبية او قام بتأليفها مستشرقون غربيون، فاننا لا نكون قد تجاوزنا الحقيقة كثيرا . وكتاب المؤرخ العربي السوري ج. حجار « أوروبا ومصائر الشرق الادنى » هو من ضمن الدراسات التاريخية العديدة التي كتبت باللغة الاجنبية والتي تتناول بالبحث الحقبة التاريخية الاولى في تاريخ العرب المعاصر ، تلك الحقبة التي شهدت ولادة الحركة القومية العربية وبداية المخططات الاوروبية الاستعمارية لتقاسم المنطقة العربية ولزرع القواعد الامامية وتعميق التجزئة على كل المستويات . ولكن قبل ان نحاول تقييم هذا الكتاب الضخم والمدعم بالوثائق والمراجع القيمة لا بد لنا من عرض سريع لاهم الموضوعات التي يتناولها . ان هدف المؤلف الاساسي كان اعادة كتابة تاريخ الكنيسة المسيحية في الشرق الادنى . الا أن أبحاثه ودراساته قادته الى الاقتناع بأن تاريخ الكنيسة لا يمكن ان يدرس بعيدا عن التاريخ العام للمنطقة بكل ما يعنيه هذا من تاريخ اجتماعي وسياسي واقتصادي خاصة وان دور الكنيسة (المحلية والاجنبية) كان يتعدى المجال الديني والتبشيري ليتعاطى بأمور سياسية بحتة . هذا عدا عن التجاوزات الخطيرة وتحول رجال الكنيسة في الكثير من الاحيان الى أدوات مباشرة وغير مباشرة بيد الاستعمار الاوروبي ليحقق بواسطتها مشاريعه ومخططاته في المنطقة . من هنا كان من الضروري على المؤرخ ان يعالج ظاهرة محمد علي وفكرة الوحدة العربية والقضية الفلسطينية . وهذا ما فعل . وهنا تكمن ، في رأينا قيمة الكتاب .

يتألف هذا الكتاب من قسمين رئيسيين :

القسم الاول وهو بعنوان « الاستقرار الاوروبي والاضطرابات الشرقية » ويمتد من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٣٣ . وفي هذا القسم يتكلم المؤرخ عن البعثات التبشيرية البروتستانتية و« اكتشافها » للشرق وللقدس وكيف بدأت الاماكن المقدسة في فلسطين تثير المنافسة الاوروبية المتمثلة بصراع الطوائف من بروتستانت وكاثوليك وارثوذكس .

ثم بعد وصف مطول لهذا الجو ينتقل للكلام عن تجربة محمد علي الذي انشأ أول دولة عربية موحدة وكان أول من أدخل التحديث والاصلاحات العديدة في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتربوي الى الشرق وكيف ان تجربته الرائدة أثارت غضب أوروبا فنشأ تحالف لم يسبق له مثيل بين السلطان العثماني « المسلم » وبين أوروبا المسيحية من أجل هدف واحد : القضاء بأي شكل على محمد علي . ويشير المؤرخ الى ان اوروبا التي كانت دائما تبدي قلقها على « مصير » الاراضي المقدسة وعلى مصير المسيحيين في الشرق لم تتوان لحظة عن التحالف مع السلطان العثماني الذي كان دائما يمثل بالنسبة اليها « عدو المسيحية رقم واحد » ضد محمد علي الذي كان اول من اتخذ اجراءات دينية متحررة واعطى الطوائف المسيحية كل حقوقها في ممارسة شعاراتها الدينية وساواها بالطوائف المحمدية . ويتكلم المؤرخ طويلا عن تجربة محمد علي ونضاله المستمر من أجل الحرية والاستقلال والتنمية وكيف ان اوروبا عارضته على طول الخط وأعادته الى « حجمه الطبيعي » كوال بسيط وصغير من ولاة السلطنة العثمانية المتداعية، وكيف ان الوحدة العربية اخذت تبرز بقوة وكيف ان أوروبا فطنت الى هذا « الخطر الجديد » فحاولت بكل الوسائل ابعاد كابوسه فكانت النتيجة اختيار فلسطين لتكون الحاجز الطبيعي في وجه أية وحدة عربية محتملة .

ونصل الى **القسم الثاني** من الكتاب وعنوانه : « من المطامح المصرية الى الوصاية الاوروبية » ويمتد من عام ١٨٣٣ الى عام ١٨٤٨ ويعالج فيه المؤلف قضية الوحدة العربية وارتباطها آنذاك بالاستقلال المصري ويطرح فيه السؤال التالي : هل كانت الامبراطورية العربية المحتملة تهدد التوازن الاوروبي ؟ ولا يعطينا المؤلف جوابا على هذا السؤال الكبير الا أنه بشرحه وتوسعه في الكلام على عنف ردة الفعل الاوروبية يظهر لنا مدى تخوف اوروبا من أي انبعاث عربي حقيقي . وقد ظهر الجواب على هذا السؤال واضحا من خلال تحركات السياسة الاوروبية آنذاك التي تميزت بالامور التالية : اثارة الفتن الطائفية (مسيحيين —